الإسلام حضارة سلم وعمل

أ. د.قلايلية العربي

كلية العلوم الإنسانية و الحضارة الإسلامية

جامعة وهران

1-التعريف بالحضارة

يأخذ مفهوم الحضارة (بفتح الحاء وكسرها) عدة تعاريف : أساسها الإقامة في الحضر، والحضر خلاف البدو، فالحضارة تطلق إطلاقا عاما على كل ما ينشئه الإنسان من أعمال وما يبدعه من أفكار ونظريات في مختلف المجالات سواء تعلق ذلك بالأعمال الفكرية أو المنجزات المادية أو ما تعلق بالروح؛ وكذا سائر الأعمال الدنيوية، فهي تشمل كل ما يصنعه الإنسان في مسيرته على الأرض، ولقد استعمل ابن خلدون هذا المصطلح (الحضارة) في مقدمته، وهو يع ني عنده غاية ما يصل إليه رقي العمران البشري، وذلك أثناء حديثه عن انتقال الإنسان من البداوة إلى الحضارة، وعن الأطوار التي تمر بها الدولة منذ نشأتها إلى رقيها واستقرارها ثم شيخوختها وتدهور أحوالها وسقوطها حيث عرف الحضارة بقوله ""إنما هي تفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه....."[1]، أما مالك بن نبي فيعرفها بأنها "جوهر الوجود للمجتمع ونقيضها الهمجية"[2]، ويعرفها إبراهيم سليمان عيسى بأنها :"كيان يجمع المعارف والآداب والعقائد والقيم إلى جانب الإنجازات المادية من مبان وطرق، وباختصار الحضارة أفكار وأشياء"[3].

يمكننا القول : الحضارة تتمثل في سائر الأعمال والمنجزات والأفكار والاعتقادات التي يصنعها الإنسان ويتأثر بها ويؤثر فيها إيجابا وسلبا، ويتحكم في مسيرتها بالقدر الذي تهيئه له الظروف الاجتماعية والسياسية والمناخية والطبيعية.

يمكننا أن نتوقف عند هذا التعريف؛ لنتأمل بعض الآيات من القرآن الكريم والتي تشكل معا لم بارزة تعتبر أسسا لحضارة أقامها الإسلام.

2-الحضارة الإسلامية:

الإسلام دين سموي كغيره من الأديان السّموية الأخرى التي سبقته من حيث مصدره وهدفه، أما محتواه وطرق علاجه لمشاكل البشر ورؤيته للوجود فتلك أمور ينفرد بها عن غيره باعتباره خاتم الأديان والرسالات، السموية فهو المكمل والمصحح والمصوب، ويمكن استنباط المعا لم البارزة التي تشكل الإطار العام للحضارة الإسلامية انطلاقا من المبادئ الآتية:

أ-مبدأ شمولية العلم والتفكير في الكون :

يمكننا الوقوف على هذا المبدأ أثناء تأمل مجموعة من آي القرآن الكريم انطلاقا من الآيات الأولى التي ابتدأ بها نزول الوحي على محمد (ص) وهي قوله تعالى: ﴿إقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم﴾ (سورة العلق/1-5)

الحضارة التي يدعوا إليها الإسلام تقوم أساسا على العلم فالأمر بالقراءة (إقرأ) يفيد النطق بالمكتوب أو المسموع والإيمان به والعمل بما يدعو إليه، فاستعمال الفعل (إقرأ) في هذا السياق القرآني ليس له معادل دلالي في أي لسان آخر، ولقد توارد ذكر هذا الفعل (إقرأ) عند العلماء المسلمين بهذه المعاني كلها (التلفظ بالمكتوب واستظهاره وحفظه ووعيه والعمل به)، (كأن يقال مثلا قرأت الكتاب الفلاني على يد العا لم فلان) يعني ذلك أن أساس الحضارة في المنظور الإسلامي (علم وعمل)، وقد جاءت الدعوة إلى القراءة مقرونة بالدعوة إلى الإيمان بالله والاستعانة به مع الإيمان برسالة محمد (ص) وما يتطلبه ذلك من عبادات ومعاملات كما

هو مفصل في كتب الفقه ؛ فطلب العلم وتحصيل المعارف فرض على كل مسلم ومسلمة، لذلك أعلى الله تعالى من شأن العلم والعلماء في مواضع كثيرة من القرآن الكريم منها قوله تعالى : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾(سورة آل عمران/18).

وإذا تأملنا مليا هذه الآية نجدها تبتدئ بالإقرار بوحدانيه الله وفي ذلك تأكيد وتقوية لهذه الوحدانية لدى السامع (المخاطب) وبين البدء والختام ذكر الملائكة بعد ذكر الله وعطف عليه بالعلماء لعلو منزلتهم والإكبار من شأنهم، فالحكم لله قبلا وبعدا لا يشركه فيه أحد، والفضل من البشر للعلماء باعتبارهم أكثر الناس نظرا وتأملا وتدبرا، فهم أولى الناس بخشية الله لقوله تعالى ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور﴾(سورة فاطر/28).

فالآية الأولى ختمت بـ(العزيز الحكيم) من العزة التي بمعنى المنعة والقوة الجبارة المهيمنة التي لا تضاهيها قوة، (الحكيم) من الحكم والتدبر والقدرة ،أي أنه تعالى هو الذي قضى وحكم برفعه العلماء وعلو منزلتهم على غيرهم ممن لم يتصفوا بهذه الصفة أي صفة العلم، والآية الثانية ختمت بـ (عزيز غفور)، فعزيز من العزة كما سبق ولا يتوصل إلى فهمها إلا العلماء ،فهم الذين يقدرون الله حق قدره ،(وغفور) من المغفرة، لأن هذه الآية وردت في سياق ذكر فيه الوعيد قبلا، وهو ما ينتظر المكذبين الجاحدين من عقاب؛ وتلا ه الوعد بعدا وهو ما ينتظر المؤمنين من نعيم، فناسب المقام هنا (عزيز غفور) حتى لا يغلق باب الرحمة والمغفرة أمام أولئك المكذبين إن تابوا وأنابوا، ليلتحقوا بهؤلاء المؤمنين فيما وعدوا به، ويستمرفي القرآن الكريم التنويه بالعلم والعلماء ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾(سورة المجادلة/11)، حيث عطف (الذين أوتوا العلم) على(الذين آمنوا) عطف بيان وتخصيص، إذ الذين أوتوا العلم هم من الذين آمنوا عامة ولكنهم زادوا عنهم بالعلم، وقد يقال : مادام المراد هو تخصيص العلماء بالرفعة عن غيرهم، فلماذا لا يقدم في الذكر (الذين أوتوا العلم) على(الذين آمنوا)، فالجواب المحتمل عن ذلك هو أن مبدأ العلم الإيمان بالله وبمقتضيات هذا الإيمان، العلم الذي يريده الإسلام ينطلق أساسا من الإيمان بالله وبما أوحي به إلى محمد ﷺفمبدأ الإيمان هنا أعم : والعلم أخص إذ ليس أهل الإيمان كلهم علماء أو على درجة واحدة من العلم، لذلك قدم الأعم على الأخص ؛ كما قال (الذين آمنوا منكم) أي من الناس والغائب في الزمان منهم كالحاضر إذ يقوم التبليغ مقام المشاهدة والمعاصرة ، أما إيتاء العلم فقد تركه مطلقا ولم يقيده، وذلك لأن العالم مهما كان تخصصه ومهما كان انتماؤه الجنسي أو الحضاري فإن تعاطيه العلم والبحث عن الحقائق قد يؤدي به إلى الإيمان في لحظة معينة، ونحن نسمع باستمرار عن علماء وباحثين في شتى مجالات العلم اهتدوا إلى حقيقة الإيمان.... فأسلموا أو أفادوا غيرهم بتآليفهم..

وإذا أحصينا الآيات التي تدعو إلى طلب العلم تصريحا أو ضمنيا لوجدناها تشغل حيزا كبيرا من المصحف الشريف وذلك مثل قوله تعالى : ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾(سورة الزمر/09).

والعلم الذي يدعو إليه الإسلام يشمل سائر أنواع العلوم سواء كانت دينية أو دنيوية والشرط الوحيد هو أن يكون العلم نافعا للفرد والمجتمع وعائدا بما هو خير وأفضل، منطلقا من الإيمان بما أمر به الله، لأن المبدأ العام الذي قامت عليه الحضارة الإسلامية هو الاستقرار والسلم والأمن والسعي بالمجتمع الإسلامي إلى أرقى مصاف الإنسانية، والعلم في خدمة الدين والدنيا معا وإقامة الحضارة الإنسانية الشاملة، لذلك ما إن شهد المجتمع الإسلامي الاستقرار والأمن حتى ازدهرت الحركة العلمية والتفت العلماء المسلمون إلى ما جادت به الحضارات السابقة: الهندية والفارسية واليونانية على الإنسانية فترجموا لمشاهير العلماء ووقفوا على زبدة أفكارهم وصاغوها صياغة جديدة وأدرجوها في المنظور العام للشريعة الإسلامية، ولم يستنكفوا عن التتلمذ لمشاهير العلماء غير المسلمين ما دام همهم الوحيد هو السعي إلى طلب الحكمة أنّى كانت ومن أي وعاء خرجت، "ومن هنا نعلم أن مبدأ العلم في الإسلام هو مفتاح كبير من مفاتيح الحضارة خلال العصور[4]، وليس كما هو الشأن في المجتمعات المسيحية واليهودية في العصور

الوسطى حيث خولت السلطة المطلقة لرجال الدين فحرموا الاتشغال بالعلم والفلسفة واعتبروا ذلك من المحرمات التي تعاقب عليها الكنيسة، لذلك لم تستطع أوربا أن تنهض إلا بعد ما تحررت من سلطة الدين (كما فهمه رجالهم) وهيمنة الكنيسة، أما الإسلام فمنذ الوهلة الأولى لنزول الوحي أمر بالعلم والتعلم، ولقد أقسم الله تعالى (بالقلم) وهو أداة الكتابة لا يمكن الاستغناء عنه في قوله تعالى : ﴿ن، والقلم وما يسطرون، ما أنت بنعمة ربك بمجنون، وإن لك لأجرا غير ممنون وإنك لعلى خلق عظيم﴾(سورةالقلم/1-4). الأفضل أن لا نقول أي شيء عن هذه الآيات إنما هي في قمة البيان وروعة الجمال ومهما قيل عنها لا يوفيها حقها ولا يرقى إلى درجتها وما أكثر السور التي تبتدئ بحروف التهجي كالبقرة ، وآل عمران، و الأعراف، ويونس، وهود، ويوسف، والرعد... ومريم.... وغافر، وفصلت... ومهما قيل من تفسير لهذه الحروف فهي أصلا أصوات لغوية يتركب منها الكلام ولا غنى عنها ودلالتها أن العقل يقف أمامها حائرا وتفتح أمامه آفاقا واسعة لتفكير يصل به إلى الإيمان بأن هذا القرآن معجز حقا وإن كانت ألفاظه وتراكيبه جارية على سنن العرب في مخاطباتها، وفي آيات سورة القلم السابقة أقسم الله تعالى بالقلم؛ وعطف على المقسم به بالمكتوب (وما يسطرون) أي وما يكتبون، وكل مكتوب كتاب وكذلك أقسم بالكتاب في ﴿والطور وكتاب مسطور...﴾(سورة الطور/1-2). وقد جعل الرسول (ص) فداء كل أسير من أسرى بدر أن يعلم الأسير عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة.

قلت إنّ الدعوة إلى طلب العلم قد تأتي صريحة كما سبق؛ وقد تأتي ضمنية بألفاظ أخرى غير لفظ العلم وذلك كما في الآيات الآتية :

-﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾(سورة البقرة/164).

والملاحظ أن هذه المذكورات هنا قد أقسم الله تعالى بمعظمها في مواضع أخرى، والقسم هو ما تعلق بالذمة ولا يكون إلا بشئ مقدس أو محبوب أو معظم هذا في حق البشر، ولله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته وليس للمخلوق أن يقسم بغير الله.

-وقوله تعالى : ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾(سورة آل عمران/19).

-وقوله تعالى : ﴿أو لم يتفكروا في أنفسهم، ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى، وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون﴾(سورة الرّوم/08).

-وقوله تعالى :﴿ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحي به الأرض بعد موتها، وإنّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾(سورة الرّوم/24).

-وقوله تعالى : ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾(سورة فصلت/53).

إن هذه الآيات وغيرها كثير حين يسمعها العاقل ويتمعنها تملأ عليه إحساسه وتفكيره وجميع كيانه ويشعر بتلك القوة الجبارة المهيمنة التي تسيطر على الكون كله وتدبره إنها القدرة الإلهية العظمى، فالدعوة إلى التفكير والبحث تكاد تغطي معظم ما جاء في القرآن الكريم إذا استثنينا آيات الأحكام التي تشغل حيزا صغيرا من القرآن الكريم، فالقرآن خاتم الرسالات السموية السابقة يخاطب الكيان البشري برمته ويدعوه إلى التأمل والتدبر والتفكير والعمل، لذلك تكررت سياقات بعينها كلما دعت المناسبة وتطلب المقام مثل قوله تعالى :

﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ في الأنعام والنحل والنمل.

﴿إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾(سورة يونس/67).

﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾(سورة الرّعد/04).

﴿ إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾(سورة النحل/11).

ومثله في سورة الشعراء في عدة مواضع.

يخاطب في ذلك كله السمع والبصر والفكر والعقل، ويدعو إلى العلم لإقامة حضارة إنسانية واعية متبصرة على أساس العدل والمساواة والسلم والاطمئنان، والخطاب القرآني شامل، ويخاطب الناس كافة انطلاقا من أن الإسلام هو الدين الذي لا دين بعده ورسوله محمد (ص) هو الرسول الذي لا رسول بعده، ﴿إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم﴾(سورة آل عمران/19).

ومن جهة أخرى فإنه يعذر الذين لم يعتنقوه لأن الدعوة لم تصلهم أو لأنهم يقوا على أديانهم السابقة كالنصارى واليهود وحتى الماجوس الذين لهم ديانات أشبه بالديانات السموية وليست لهم كتب صحت نسبتها إلى الوحي السموي فإنه يعذرهم ولا يجبرهم، وإنما دعا المسلمين إلى نشر الإسلام بالحكمة والموعظة قال تعالى :﴿أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾(سورة النحل/125).فالمسلمون مطالبون بتبليغ رسالة الإسلام إلى الناس كافة باستعمال اللين والحوار وسائر وسائل الإقناع التي تؤدي إلى معرفة الخالق من خلال ما أنزله على محمد (ص) خاتم الأنبياء والمرسلين فرسالة الإسلام رسالة لين ورفق ومسالمة وعلى هذا الأساس قامت حضارة الإسلام واتسعت..

ب–مبدأ العمل : وطلب العلم لابد من أن يقترن بالعمل الصالح في نظر الإسلام فالعلم يتجسد في الواقع عملا ويصدقه التطبيق والممارسة الفعلية ،وقد كان الرسول (ص) قدوة يأمر ويوصى وينهى ويبين ويفصل ويشرح ويعلم ويبدأ بنفسه ومتأمل القرآن الكريم يجد لفظ (عمل) يتوارد بكثرة يصعب إحصاؤها وأنه يرد دائما مقرونا بما يترتب عليه من جزاء فإن كان صالحا كان جزاؤه الأجر والمغفرة، وإن كان سيئا كان جزاؤه العقاب، ومما يلفت الانتباه أن هذا الأصل اللغوي (ع.م.ل) قد ورد بأغلب صيغه المعروفة في لسان العرب.

عمل: ﴿من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم﴾(سورة البقرة/62).

عملت : ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت محضرا﴾(سورة آل عمران/30).

عملته : ﴿ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون﴾(سورة يس/35).

عملتم : ﴿قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم﴾(سورة التغابن/25).

أعمل : ﴿وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لي في ذريتي﴾(سورة الأحقاف/15).

وهكذا نجد صيغا أخرى كثيرة لهذا الفعل تكاد تستوعب حالات تصرفه في اللسان العربي؛ هذا بالإضافة إلى التعبير عن العمل بألفاظ أخرى تفيد المعنى كالسعي قال تعالى : ﴿والليل إذا يغشى... إن سعيكم لشتى﴾(سورة الليل/1–4).

ولقد زادت السنة النبوية العمل تفصيلا وبينت آثاره في المجتمع ونتائجه الأخروية : "إعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا وأعمل لآخرتك كأنك تموت غدا".

جـ– مبدأ تكريم الإنسان : شرف الله تعالى الإنسان وجعله أفضل المخلوقات حسا ومعنى، قال تعالى : ﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾(سورة الإسراء/70)، والتكريم يعني العقل والقدرة على الإدراك والتمييز وتحمل المسؤولية قال تعالى : ﴿والله أخرجكم من

بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾(سورة النحل/78)، التكريم بالعقل، والعقل محل التكليف والمسؤولية تكليف لذلك قالوا "إذا أخذ ما وهب أسقط ما أوجب"، و(لعل)في قوله تعالى السابق تفيد التعليل أي أن الله وهبنا هذه الحواس والجوارح لنشكره، ولفظ الشكر هنا جامع لمعان كثيرة منها الصبر والاعتراف بقدرة الخالق والإيمان بالله وبسائر ما أمرنا الإيمان به، ثم تصديق ذلك الإيمان بالعمل وإطاعة الله ورسوله فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه.

ومن مقتضيات هذا التكريم أيضا أنه سبحانه وتعالى استخلف الإنسان في الأرض لتعميرها وإقامة العدل بها وإحقاق الحق والمساواة، ونشر العلم والطمأنينة بين أبناء البشر، ومن آيات هذا التكريم أنه سخر له الكون والطبيعة ينتفع بها ويحافظ عليها ويستمد منها حاجاته لذلك قال : ﴿الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون، وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾(سورة الجاثية/12-13)، والملاحظ أنه قيل (الله الذي سخر لكم البحر) ولم يقل (سخر البحر لكم) ، وقيل(سخر لكم ما في السموات وما في الأرض)، ولم يقل (سخر ما في السموات لكم...) لأن اللام الجارة هنا تفيد التعليل أي من أجلكم وبسبب انتفاعكم بها، وليست اللام في (لكم) للملك أي تفعلون بها ما تشاؤون، لأن الإفراط والتبذير وإهدار المال العام والانفاق بغير حدود كل ذلك يؤدي إلى الحرمان والفقر والاضطراب في المجتمع، فالفرد في نظر الاسلام حر بقدر ما لا تكون حريته سببا في الحد من حريات الآخرين أو تجلب للمجتمع أضرارا بطريقة ما، فالله تعالى حينما استخلف الإنسان على الأرض حمله أمانة تنوء الجبال بحملها فلابد عليه من مراعاة الله في هذه الأمانة والقيام عليها أحسن قيام ،فالذي يهدر ماله ويبذره في طرق الانفاق غير المشروعة أو يضر جسمه أو عقله.... يعاقب على ذلك ويأمر الشرع بكفه عن فعله والوقوف أمامه لمنعه، ونحن نعرف ونعلم بالكثير من المشاكل والمصائب التي تعانيها البشرية الآن من فساد للبيئة وتلوث للجو، واضطرابات في المناخ يرى العلماء أسبابها عائدة إلى استغلال العلم والبحوث العلمية والتجارب، استغلالا لا مسؤولا، لذلك قال تعالى : ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا﴾(سورة الإسراء/36).

فالإنسان مطالب بالعمل الصالح، وتسخير ما حوله وتوظيف إمكاناته في ما يخدم المجتمع ويرقيه ويسهم في إقامة الحضارة التي ينشدها الإسلام، ومن المسؤولية أن يقدر الإنسان العواقب ليتأكد من خواتم أعماله فإذا غلبت المنفعة على المضرة كان العمل مقبولا ,إذا رأينا الضر أكثر من النفع فالاجتناب أولى، لذلك أمرنا الرسول (ص) بدرء الشبهات حين نحس التباسا بين الحرام والحلال، فكذلك الأمر في تسيير أمور الناس عبر سائر المؤسسات لابد من المحافظة على النظام العام الذي يسمح بروح المبادرة ويفسح المجال واسعا لإظهار المواهب والكفاءات للاستفادة منها، وإيجاد الطرق والوسائل التي تمكننا من إنجاز قدر كبير من الأعمال التي نكون متأكدين من صلاحيتها ونجاعتها بالقدر الذي يناسبها من المال من غير إسراف أو تبذير، وقد قال تعالى :﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ﴾(سورة الإسراء/29).فتصير ملوما عند الله لأن المسرف غير مرضي عنده وعند الناس، ...ومحسورا، منقطعا بك لاشيء عندك..... فملوما في حالة الغل، ومحسورا في حالة البسط.

وأما الذي يتقاعس عن العمل ويعطل فكره عن التفكير وحواسه عن التبصر والتأمل العلمي المفيد فقد جعله الله في عداد الأنعام بل هو أضل من الأنعام لأنه وهب عقلا فحسبه وحواسا فطمسها واستسلم لليأس وركن إلى الخمول والإنطواء وارتمى في غيابات الجهل وكان مأواه جهنم؛ قال تعالى : ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين، لايبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾(سورة الأعراف/179).

والحقيقة أن السمع والبصر والإدراك باعتبارها صفات بيولوجية عادية ليست منفية عنهم، وإنما المنفي عنهم عدم استعمال هذه الحواس والجوارح في العمل الصالح، لذلك وصفوا بالغفلة (الضلال).

د-مبدأ المساواة والعدل وإقامة السلم في الأرض.

لقد تردد مصطلح السلم في القرآن الكريم سبع مرات حسبما جاء في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (مادة سلم) [5]وذلك في سورة البقرة ﴿يا أيها الذين آمنوا أدخلوا في السلم كافة ﴾. وفي سورة الأنفال/61، وفي سورة محمد/31، وفي سورة النساء/90،و91، وفي سورة النحل/ 28،/87، والسلم معنى جامع يفيد الاستقرار والأمان والأمن والطمأنينة والحلم والأناة والعفو والرحمة... وجاء التعبير عن السلم في القرآن الكريم بألفاظ كثيرة وفي سياقات عديدة لا يمكن حصرها؛ (فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) دعوة إلى السلم، وكف الأذى عن الناس من السلم العفومن السلم، والصدقة من السلم، والمساواة في الحقوق والواجبات من السلم وكان الرسول ﷺوالصحابة من بعده شديدي الحرص على إقامة مجتمع إسلامي على أساس العدل والمساواة وضمان الحقوق والواجبات، فالسلم بمفهومه الضيق هو الاتفاق الحاصل بين الطرفين المتحاربين على توقيف الحرب، ولكنه كمصطلح دخل عالم السياسة المعاصرة فهو ضد العنف، وأن العوامل والظروف الباعثة على السلم من السلم، كما أن العوامل والظروف الباعثة على العنف فهي من العنف، لذلك حرص الإسلام منذ البداية على تهذيب الأخلاق وتربية النفوس،و تهذيب الطباع؛ وحرم الغش (من غشنا فليس منا" والظلم (الظلم ظلمات يوم القيامة)؛ والنميمة (أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه)، (من تمّ لك تمّ عليك)، وأمر بالإحسان والبر والعفو والإعراض عن الجاهلين لذلك قال رسول الله (ص) "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"؛ ولما وجد الناس في هذه الشريعة عدلا ومساواة اعتنقوها واهتدوا بهديها فكان في المجتمع الاسلامي المسيحي واليهودي والمجوسي كل في عمله وبين أهله يشعر بالأمن والأمان وينعم بالسلم.. ولقد دعا عمر ابن الخطاب إلى رعاية أهل الذمة عند العجز والشيخوخة مقابل ما كانوا يدفعونه لبيت مال المسلمين من جزية لذلك قالوا "يدوم الحكم من الكفر والعدل ولا يدوم مع الإيمان والجور" والإسلام يقر مبدأ المساواة والعدل بين الناس باعتبار المنشأ والمصير ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم﴾(سورة طه/55). وقال تعالى :﴿يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعلمون﴾(سورة المائدة/08).

وأرسى الإسلام حقائق العدل المجردة لا تخضع لجنس ولا للون ولا دين، وقد اقتص الرسول (ص) من نفسه في غزوة بدر، فقد وجد سوادا خارجا عن الصف فقال له : استو يا سواد وطعنه في بطنه فقال له سواد "أوجعتني يا رسول الله" فكشف الرسول(ص) عن بطنه وقال له : استقد مني[6].

ومن أوجه المساواة،المساواة بين الذكر والأنثى ﴿من عمل صالحا من ذكر وأنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾(سورة النحل/97).

وفي هذا الإطار يدعو الإسلام إلى التكافل الاجتماعي بين الفرد ونفسه بالمحافظة عليها وصرفها عن كل مكروه وانتهاج السّبيل القويم بها ،وبين الفرد والمجتمع، فالفرد عضو في المجتمع، والمجتمع أفراد كثيرون لابد أن ترعى حقوقهم وتحفظ كراماتهم ويشعرون بالحرية والأمان حتى يستطيعوا أداء مهامهم وانجاز ما يطلب منهم، ولأجل هذه الغايات لابد من أن يلتزم كل فرد بما له ويؤدي ما عليه، لذلك جاءت سورة من السور القصار تنهى عن الصفات السيئة وتندد بها وهي سورة الماعون ﴿أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم.....﴾.

وكذلك قوله تعالى : ﴿واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾(سورة الأنفال/25)، لذلك لعن الله الذين كفروا من بني إسرائيل جزاء فعلهم المنكرات وبغى بعضهم على بعض وتقاعسهم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى : ﴿لعن

الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود، وعيسى بن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾(سورة المائدة/78-79).

ويصف القرآن الكريم الصالحين ﴿المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾(سورة التوبة/51).

لاغرو أن نجد مبدأ السلم والمساواة والعدل الاجتماعي في ثنايا القرآن الكريم في مواضع لا تحصى، فالدعوة إلى الإيمان بالله ورسله وكتبه وباليوم الآخر وبالجنة والنار والحساب والعقاب وردت إما في سياق الوعد، وإما في سياق الوعيد، والقرآن يتصل بعضه ببعض ويكمل بعضه بعض، والمجتمع الذي ينشده الإسلام ليس مجتمعا خياليا، ولكنه وقع فعلا وساد قرونا.

هـ-مبدأ المجاهدة بالعمل والعبادة : سبق القول : إن العمل الذي ينشده الإسلام هو العمل الصالح الذي يعود بالخير على الفرد، وعلى المجتمع وتخلص فيه النية لله، وتقدر فيه العواقب حق تقديرها حتى لا تزيغ الأعمال عن المراد منها ولا يلتبس الحق بالباطل وقد حذرنا الرسول(ص) من الوقوع في الشبهات فقال (فادرأوا الشبهات) وها نحن نجد اليوم في مجتمعاتنا من يجيزون أعمالا عدوانية منافية للإسلام يجيزونها باسم الإسلام ،ويلتمسون الأدلة من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة معتمدين على التأويل حسبما يحلو لهم، وبها يحلون دماء المسلمين تحت اسم الجهاد في سبيل الله، من غير أن يعتمدوا على أهل التحقيق المتثبتين من علماء الشريعة الإسلامية عبر العصور، مع أن الإسلام قنن للحرب (الجهاد)، وقيده بضوابط صارمة، فهو مجرد وسيلة لتطوير حضاري تقوم به الشعوب بعضها مع بعض ولا يتعارض مع السلم لذلك أوصى الخليفة أبو بكر الصديق قائد جيوشه بعدم الغلو والعصيان ومن أقواله في ذلك : "لا تهدموا بيعة ،ولا تغرقوا نخلا ،ولا تحرقوا زرعا ،ولا تشجروا بهيمة ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تقتلوا شيخا كبيرا، ولا صبيا صغيرا..." [7]. أين هذا وغيره من روح التسامح والتسامي الذي نجده في الإسلام مما نشاهده اليوم من إباحة لدماء المسلمين على أيدي المسلمين أنفسهم؟ وأين هو أيضا من هذه الحروب الهمجية المدمرة للشعوب وحضارتها وثقافاتها ومع ذلك يدعى أصحابها أنهم متحضرون وديمقراطيون...؟!

أعود فأقول إن مبدأ المجاهدة يقتضي محاربة الشهوات وضبط النفس، وكف اللسان عن أذى الناس، وفي ذلك قال رسول الله ﷺ: ﴿وهل يكب الناس على مناخرهم في نار جهنم إلا حصائد ألسنتهم ﴾، وقال : ﴿ألا إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا الموطؤون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون﴾.

و-البعد الإنساني للحضارة الإسلامية :

إذا نظرنا إلى الأطوار التي قطعتها الحضارة العربية الإسلامية منذ بعثة محمد ﷺإلى ذلك الانتشار الواسع للإسلام في القارات الثلاث (أسيا وإفريقيا وأوربا) لتأكد لدينا بأن هذا التوسع والانتشار لم يكن بقوة السيف كما يحلو للبعض أن يقول ،وهناك حروب كثيرة وقعت وحشد لها الآلاف بل الملايين من الجيوش ولكنها لم تحقق النصر الذي حققه الإسلام عن طريق العدل والمساواة وعدم التفريق بين الأجناس، والديانات ،في تحمل المسؤوليات وتولية المناصب، لذلك ما إن تسامعت الأمم أخبار المسلمين وعدلهم واستقامتهم حتى اعتنقوا الإسلام ونشطوا في أحضانه فكان منهم العلماء في مختلف صنوف المعرفة ،فالإسلام يفتح أمام معتنقيه فرص الترقي وتولي المسؤولية ما داموا مستقيمين مؤمنين بل نال العلماء المسلمون من غير العرب المكانة الراقية في المجتمع الإسلامي فاحترمهم من حولهم من الأمراء والخلفاء وغيرهم، ولقد أخبرنا القرآن الكريم بأن الأنبياء قبل محمد ﷺكانوا مسلمين قال تعالى : ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه، ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين، إذ قال ربه أسلم، قال أسلمت لرب العالمين، وأوصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا ابني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾(سورة البقرة/131-132)، والأرجح أن لفظ (الإسلام) بمعنى الاذعان والخضوع والإيمان بالله تبارك وتعالى، أما

الشرائع والحدود فلم تتم إلا مع خاتم الأديان (الإسلام) وخاتم الرسل (محمدﷺ)، ولفظ الإسلام نفسه مأخوذ من هذا المعنى أي الإيمان بالله والخضوع إليه وإسلام الوجه والقصد له، ثم ما يلحق ذلك من عبادات ومعاملات، وكذلك جاء على لسان يوسف عليه السلام قوله تعالى : ﴿رب قد أتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين﴾(سورة يوسف/101)، وقال الله على لسان عيسى ابن مريم ﴿قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون﴾(سورة آل عمران/52)، وكذا سائر الأنبياء أسلموا وجوههم لله تعالى، مما يتبين معه أن الدين وأن الرسالات السموية يكمل بعضها بعضا ويصدق بعضها بعضا وكل نبي أرسل إلى قوم إنما كان يخبرهم بأنه سيكون بعده من يتم المسيرة ويوصيهم باتباعه، إلى أن جاء محمد (ص) بالإسلام فصحح العقيدة وأكمل التشريع فكانت رسالته خاتمة لجميع الرسالات قبلها، وكان الخطاب فيها عاما وشاملا؛ لذلك كرر في القرآن الكريم الخطاب (يا أيها الناس) ولقد وزعت على أكثر من عشرين موضعا منه مثل قوله تعالى : ﴿يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فأمنوا خيرا لكم﴾(سورة النساء/169)، وقوله تعالى : ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء﴾(سورة النساء/01)، ويرى كبار المحققين من المفسرين والدارسين أن النداءات بـ (يا أيها الناس من خصائص القرآن المكي، الذي كان بصدد تقوية الإيمان وصقل النفوس وغرس فكرة الوحدانية وما يتبعها من إيمان، وأما النداء بـ (يا أيها الذين آمنوا) فهو من خصائص السور المدنية الهادفة إلى تبيان الشرائع، وإقامة الحدود وإرساء قواعد المجتمع الإسلامي الجديد... فالمخاطب بقوله تعالى (يا أيها الناس) الإنسان على العموم، فإذا آمن دخل في زمرة المخاطبين بصفة الإيمان،(يا أيّها الذين آمنوا).

وهكذا اتخذت الحضارة الإسلامية بعدا إنسانيا أساسه الانفتاح والتعارف والبر والإحسان والقسط وكل ذلك مستمد من الآيات القرآنية كما في قوله تعالى : ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا .... ﴾(سورة الحجرات/13) ، وقوله تعالى :﴿ولا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾(سورة الممتحنة/08).

كما أمر بالمحافظة على العهود والمواثيق مع غير المسلمين ﴿إلا الذين عاهدتم من المشركين لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ﴾(سورة التوبة/04)، فالوفاء بالعهد ورعاية الميثاق والمحافظة على الاتفاق من صفات المسلم التقي بل هي عين التقى لأن أساس إقامة المجتمع التآخي والتسامح والتواصل والثقة المتبادلة بين أفراده وجماعاته، فإذا انعدمت هذه شبت الفوضى والقلاقل وتساوت الأضداد وزهد الناس في حياتهم واختلت الوظائف الاجتماعية واندثرت الأمة برمتها، فلما فهم المسلمون الأوائل الإسلام حق فهمه سعوا إلى نشره وسرعان ما تلقفته أقوام مختلفة ومن حضارات شتى شرقا وغربا فاهتدوا بهديه وافرغوا فيه زبدة أفكارهم فكان منهم المفكرون والفلاسفة والباحثون في شتى أصناف المعرفة الإنسانية.

ولا يخفى على أي دارس ما انجبت الحضارة الإسلامية من علماء أفذاذ في مجالات عدة كالرياضيات والفلسفة، والكيمياء والجغرافيا والتاريخ وعلم الفلك وغيرها وما فتئت أسماؤهم تتردد وبعض نظرياتهم وأرائهم صالحة تدرس....ولو أن الحضارة العربية الإسلامية أتيح لها مدة أطول من الاستقرار لطلعت على البشرية بأسرار علمية باهرة وبنزعة إنسانية سامية أساسها التسامح والعدل والمساواة والسلم : لأن التفوق التقني والعسكري الذي أحرزه الغرب الآن صبغ الحضارة الغربية بصيغة العنف وجعلها حضارة مخيفة تخافها الشعوب الضعيفة لأنها تداعب القلوب والعقول بذلك البريق المعجب الذي سرعان ما يتحول إلى عنف وحرب ودمار في حق الثقافات والحضارات الأخرى "وعلى هذا فإن الغزوات الكبرى التي قامت بها أروبا في أفريقيا وآسيا لم تكن أقل هدما وتخريبا للقيم الثقافية العليا"(8).

إن إعادة بناء الذات يجب أن تبدأ أولا من موروثنا الثقافي والحضاري، لا للدفاع عنه والتغني به ولكن على اعتبار كونه مرتكزا أساسيا في جميع أعمالنا وابداعاتنا الحضارية والفكرية، ولابد من التحرر من عقدة (إنهم أقوى منا...).
إن المهمة الأولى للعلماء والمثقفين هي كشف الأكاذيب التي تسود المراجع العلمية ووسائل الإعلام التي تخدم الغرب ولابد على النخب بمختلف اتجاهاتها وتخصصاتها من أن تعتمد على العمل الجماعي المدعوم بالمناهج العلمية الحديثة والمبني على أسسنا الحضارية ودعائم هويتنا، ولئن كان الرصيد الحضاري للأمة الإسلامية عاملا أساسا في نقل العالم الغربي من ظلام القرون الوسطى إلى عصر التنوير والازدهار والبحث الجاد ألا يمكن أن نتخذ من بحوثهم العلمية ومناهجهم الدراسية أدوات قوة، كما فعلوا هم من قبل، بدل أن نقف عاجزين أمام الهوة الشاسعة بين أل(نحن) والآخر.

الهوامش :

1-مقدمة ابن خلدون مكتبة ومطبعة عبدالرحمن محمد القاهرة ص: **123**.

2-شروط النهضة مالك بن نبي ص :66

3-الحضارة الإسلامية د/ابراهيم سليمان عيسى دار الكتاب الحديث ط/1999 ص:19

4-معالم الحضارة في الاسلام د/عبدالله ناصح علوان ط2/1984، دار السلام للطباعة والنشر ص:19

5-المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم محمد فؤاد عبدالباقي دار الحديث القاهرة ط1/1996 (مادة سلم).

6-الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية د/توفيق يوسف الواعي ط1/1988 دار الوفاء ص:543-544.

7-الحرب والحضارة شام العسلي المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ط1/1979 ص:14

8-حوار الحضارات روجي قارودي ترجمة د/عادل العوا منشورات عويدات بيروت ط1/1978 ص: 185.